أهمية الدراسات البينيَّة بالنهوض الأكاديمي في دراسة الفن وفق التفكير المقاصدي

رائد جميل عكاشة*

الملخص

تحاول الدراسة بناء تصور حول برنامج للفنون بناءً على مقاصد الشريعة، وأهمية الدراسات البينية والتكاملية في تحقيق توازن بين البنية المعرفية الإسلامية الممثلة في الأصول التأسيسية (القرآن الكريم والسنة النبوية) والتراث الحضاري من جهة، وعلوم العصر من جهة أخرى. لقد غدت التكاملية إطاراً مرجعياً ومعياراً لفهم العلاقات بين العلوم، وإعادة تنظيمها، واكتشاف أواصر القربى بينها، لا سيما بين تلك العلوم ذات الحقول الدلالية المشتركة كما في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية. ومنهجية التفكير المقاصدي مهمة في نقل التفكير من صفة الجزئية إلى صفة الكلية، حتى يستوعب الظاهرة بصورة أكثر شمولية.

إن التوازن المشار إليه يفيد في تحديد نوعية الخطاب الفني المناسب للمرحلة، ويعمل على تأسيس البرنامج التعليمي للفن بناء على التصوّر المعرفي والوظيفة الحضارية للفن أولاً (المعرفة)، وليس على تركيبته وبُعده الفني والجمالي (العلم)، وسيُفعّل فكرة البدائل الحضارية التي هي جزء أصيل من التفكير المقاصدي.

الكلمات المفتاحية: التفكير المقاصدي، الدراسات البينية، الفن الإسلامي، التوحيد.

The Importance of Interdisciplinary studies for the Academic Progress in the Study of Arts Using *Maqasidi* Thinking Approach

Raed Jamil Okasha

Abstract

This study attempts to develop a conception of art program of study based on the purposes of the Shari'a (*maqasid*), and the importance of interdisciplinary and integrative studies to achieve a balance between the Islamic knowledge structure in the founding sources (Quran and Sunnah) on the one hand, and the cultural heritage and contemporary knowledge in the other. Integration has become a frame of reference and a criterion for understanding, reconstructing and reconciling knowledge, especially knowledge with common semantic fields, such as social sciences and humanities.

The approach of *maqasidi* thinking is important in moving from partial thinking to a wider space of global thinking in order to comprehend the phenomenon in a more comprehensive way. The balance referred to is useful in determining the quality of an appropriate artistic discourse. It helps to establish an educational art program based on the cognitive perception and cultural function of art; i.e., knowledge, not on its composition and its artistic aesthetic dimension (science). It will also activate the idea of cultural alternatives, as an integral part of the *maqasidi* thinking.

Keywords: *Maqasidi* thinking, Interdisciplinary studies, Islamic art, Tawhid.

---

* دكتوراه في النقد الأدبي من الجامعة الأردنية عام 2002م، المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي/مكتب الأردن. البريد الإلكتروني: raed1187@yahoo.com

تم تسلم البحث بتاريخ 2018/8/1م، وقُبل للنشر بتاريخ 2018/12/30م.

مقدمة:

تسلط الدراسة الضوء على عدد من الإشكاليات التي رافقت الفن منذ لحظة نزول الوحي، بوصف الفن نشاطاً إنسانياً كان حاضراً منذ الأزمنة الغابرة. وتتبلور الإشكالية الأولى في صورة إشكالية منهجية متصلة بالفصل بين العلوم في تناول الظاهرة الفنية، فمما هو مُسلّم به في وقتنا الحاضر، وفي ظل العولمة بشكل خاص، أن المعلومة وحدها غير كافية لإنتاج المعرفة وتطويرها وتفعيلها، بل ثمة حاجة ماسّة إلى الحِكمة والتآلف بين العلوم لتطوير منهجية قادرة على الربط بين النشاط الفكري والممارسة البحثية وطرق التعامل مع الأفكار، وهو ما يمثله مفهوم التكامل بين العلوم أو الدراسات البينية، وهو ما يعني الإفادة من العلوم الاجتماعية والإنسانية لفهم مقاصد الشريعة. لا سيما أن ثمة وعياً متنامياً بالحاجة إلى أساتذة يصممون برامج بحثية من منظور منهجية التخصصات المتداخلة أو العابرة للتخصصات.

وتتمثل الإشكالية الثانية في الخلل في فهم ماهية الفن، وعلاقته بالدين؛ إذ لا يزال الفن في الفكر الإسلامي موضوعاً بكراً، لم تستكشف آفاقه الفلسفية والعلمية والنقدية على نحو واسع وعميق، على الرغم من علاقته الحميمة بالمعرفة الإسلامية؛ ووجوده الراسخ فيها. ولم يأخذ حظاً وافراً في الدائرة المعرفية الإسلامية، بوصفه مفردة من مفردات الفكر الإسلامي، ولا في الدائرة المعرفية العربية بوصفه تشكّلاً من تشكلات التراث. ولعل ثمة سببين رئيسين لذلك؛ الأول ذاتي يتصل بالتصوّر القاصر الذي رسمته بعض المؤسسات المعرفية الإسلامية لعلاقة الجفاء وربما القطيعة مع الفن، على الرغم من عدم مجافاة النص للفنون؛ والثاني موضوعي يتصل بالتصور الخاطئ والمغرض أحياناً لطبيعة العلاقة بين الإسلام والفن، وتبلور هذا التصور في بعض المؤسسات المعرفية الاستشراقية، وبعض المفكرين المسلمين والعرب، ممن انتموا إلى بنية معرفية مغايرة للبنية المعرفية الإسلامية.

أما الإشكالية الثالثة فهي ماثلة في الفصل بين المعرفي والفني في تأسيس البرامج الأكاديمية المتعلقة بالفن، ومدى حضور المرجعية في هذه البرامج؛ إذ إن الناظر في البنية المعرفية للفن الإسلامي يجده –في عدد غير قليل من مواضعه– منطلقاً من أسس ومبادئ فكرية وعقدية واضحة، أهمها مبدأ الوحدانية، الذي مثّل جوهر الاعتقاد الإسلامي؛

ومكّن الفنان المسلم من أن يبني هوية ثقافية فنية لها قواعدها وشروطها وأفكارها، وأن يعكس الحضور القوي للمضمون العقدي. مما يعني بأن المرجعية الكونية القرآنية الحضارية كانت متجذرة في وجدان الفنان المسلم وهو يبدع أشكالاً وأنماطاً فنية. مستفيداً من الإطار المرجعي المتمثل في الرؤية الحضارية، ومن التفكير المقاصدي الذي وفّر له مساحة تفكيرية ووسّع له دائرة المباح المتسقة مع مقاصد الشرع والفطرة السليمة.

ستحاول الدراسة البحث في إمكانيات تأسيس برامج لدراسة الفن وفق مقاصد الشريعة، وبناءً على الدراسات البينية، التي تمنح دراسة الظاهرة أبعاداً متنوعة، لتحيط بالجوانب المختلفة للفن الإسلامي، في مسعى لإعادة الاعتبار للمنهجية الإسلامية القائمة على الوصل بين المعارف والعلوم، دون تقصير بالتخصصية، فليس ثمة إبداع جمعي دون إبداع فردي، وليس ثمة إنتاج معرفي ناجع دون قدرة وكفاءة في فهم العلم في بُعده الجزئي والفني.

أولاً: ماهية الفن الإسلامي

يتمثل الهدف الأساس في الحديث عن الفن الإسلامي في تبيّن منحى معرفي لماهية هذا الفن، واستكشاف الأصول والمرجعيات التي يتكئ عليها، وكُنْه معنى الإسلامية في هذا الفن، لنكتشف الرؤية الإسلامية للفن، مما سيسهم في بناء الفنون وفق التفكير المقاصدي. وليس من أهداف الدراسة البحث في التعريفات الكثيرة لهذا الفن،[1] لا سيما أن مصطلح الفن اسم جنس جامع للفنون: البصرية والسمعية والشفاهية والتعبيرية والأدائية إلخ، فضلاً عن أن هناك مصطلحات (ومنها الفن والثقافة والحضارة) هي مصطلحات مراوغة، تمتح رؤيتها وماهيتها من التصوّر الأيديولوجي للمنشئ، إضافة إلى التداخل الكبير الذي حدث تاريخياً بين الفن والصنعة والعلم.

[1] يعتمد كثير من الباحثين في الفن الإسلامي، لا سيما من ذوي التوجهات الدعوية على تعريف محمد قطب للفن الإسلامي "هو التعبير الجميل عن حقائق الوجود من التصوّر الإسلامي للوجود." ويبدو في هذا التعريف أن ثمة تركيزاً على الوصف أكثر من تحديد ماهية الموصوف وهو الفن.

1. مدخل معرفي لجدلية العلاقة بين الدين والفن:

لن تتجه معالجتنا لموضوع الدين والفن اتجاهاً فقهياً حديثياً، بحيث نستعرض النصوص الحديثية والآراء الفقهية التي دارت حول حرمة الفنون وحِلّها، فقد أُشبعت دراسةً وجدالاً، ما بين مُحلٍ ومُحرّم ومُحلّ بقيود.[2] ولكننا سنبدأ من لحظة الوعي المجتمعي بالعلاقة الوطيدة بين الدين والفن، وبما تمثله هذه العلاقة من تفعيل للرؤية الكونية في المجال الفني والجمالي، وبما يحققه هذا التواشج من اتّساق مع الفطرة البشرية.[3]

لقد وعى عدد من العلماء المقاصد القرآنية فيما يتصّل بالفنون عامة، والتصوير (التجلي الأكبر للإشكالية) خاصة.[4] وانطلقوا من قواعد أصولية وفقهية تؤصل للفن

[2] يرى محمد عمارة بأن هناك موقفاً غير واعٍ لموقف الدين من الفن عند بعض الفقهاء وأنصاف المثقفين بثقافة الإسلام، من الذين وقفوا عند ظواهر النصوص والمدلول الحرفي والجامد للمأثورات. فالشائع لدى هؤلاء وأولئك أن الإسلام كدين اتخذ موقفاً غير ودّي بل معادياً للفن التشكيلي. ويشدد عمارة على أن "القرآن الكريم لم يتخذ من التصوير للأحياء موقفاً معادياً، بل لقد أناط الأمر بالمقاصد والغايات والنتائج والثمرات؛ فإذا كانت الصور والتماثيل وسائل للشرك بالله، وسبلاً ينحرف البعض بتعظيمها عن عقيدة التوحيد، كان الرفض لها والتحريم لصنعها هو موقف القرآن. أما إذا كانت لمجرد الزينة وإبراز براعة الإنسان وقدرته، ولتجميل الحياة وتنمية الحس الجمالي عند الإنسان، وتخليد القيم والمعاني والمآثر الطيبة الجميلة، فإنما عندئذ تصبح من الطيبات."

– عمارة، محمد. **الإسلام وقضايا العصر**، بيروت: دار الوحدة للطباعة والنشر، 1405هـ، ص47.

ويعني كلام عمارة أن تحريم الفن ليس مقصوداً لذاته، بل لما يحيل إليه، وأن التحريم كان في البداية متصلاً بقضية الوحدانية والتنزيه.

[3] يرى علي عزت بيجوفيتش بأن ثمة علاقة قوية بين الدين والفن؛ إذ في توضيحه للعلاقة بين العقل والفن (العقل يتبع العلم، والفن يتبع الروح) قاده هذا إلى طرح ثنائية الحضارة والثقافة؛ فالحضارة تنتمي إلى العلوم التقنية، وهي تعبير عن الحاجة الإنسانية (كي أعيش)، ونريد مملكة الأرض. أما الثقافة فتنتمي إلى الدين والفن، وتمثّل طموح الإنسان (لماذا أعيش)، ونريد مملكة السماء. انظر هذه الفكرة عند بيجوفيتش في كتابه: الإسلام بين الشرق والغرب، وكتابه هروبي إلى الحرية.

[4] ومن ذلك ردّ ابن حزم على من فسّر اللهو في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ (لقمان: 6) بالغناء، بأنه تفسير مفسرين، وليس عن رسول الله، ولا ثبت عن الصحابة، فلو صحّ ما كان فيه متعلّق، لأن الله يقول (ليضل عن سبيل الله)، وكل شيء يقتنى ليضل به عن سبيل الله، فهو إثم وحرام.

– ابن حزم الأندلسي، علي بن محمد. **رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور**، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1987م، ص435.

فضلاً عمّا في هذا التفسير من تعارض مع الأحاديث النبوية الصحيحة التي جاء فيها الكلام عن الغناء المباح باسم اللهو (عن عائشة رضي الله عنها أنها زفّت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبي ﷺ: ياعائشة ما كان معكم له؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو). انظر:

بشكل عام. ومن هذه القواعد قاعدة (الأصل في الأشياء الإباحة)، وهي متعلقة بما لم يرد فيه نص صريح بالنهي؛ إذ هي عودة بالشيء إلى أصلها الفطري.[5] وكذلك قاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، ولعل هذه القاعدة الأصولية وما ينتج عنها من تفكير فقهي متعلق بفِقه الواقع، يأخذ بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان، والمتغيرات والمستجدات، وهي قاعدة مهمة في الوقت الحاضر، لا سيما بعد أن أثبت الفن حضوره وبأنه قادر على التأثير والتغيير؛ سلباً أو إيجاباً. وكذلك قاعدة (الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامةً كانت أو خاصة)،[6] وهي قاعدة تتعلق بالمنفعة والمصلحة، ولا يشكّ أحد بالنفع الناتج من الفن في الوقت الحاضر.

وحاول بعض العلماء ربط الدين بالفن انطلاقاً من تحقيقها مقاصد نفسية متصلة بجبلّة الإنسان وتكوينه النفسي والوجداني، وبتأثره بمحيطه النفسي، فذا الإمام الغزالي يكشف أهمية الإيقاع والفن بشكل عام في ضبط الجانب الشعوري، وإحداث التوازن النفسي عند الإنسان؛ إذ الميل إلى الفن شيء متأصل في خلقة الإنسان وطبيعته، فهو منزع إنساني بحت، يقول: "لله سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر

– ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد. **المحلّى في شرح المجلّى بالحجج والآثار**، عناية: حسان عبد المنان، السعودية–الأردن: بيت الأفكار الدولية، 2003م، المسألة 553، ص475.

وعدّ بعض الباحثين اللهو من النشاطات الإنسانية المتوقع حدوثها لموافقتها الفطرة، وذلك استنباطاً من الآية الكريمة ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ (الجمعة:11)؛ إذ حددت الآية قيم الحياة ومؤسساتها الأعلى، فالأولى (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة) أمر الديانة، ثم أمر التجارة، ثم شأن الفنون، فأقرت الفنون نشاطاً ثابتاً من نشاط الإنسان. انظر:

– عبد القادر، عمر. **رؤية إسلامية للفنون**، الخرطوم: المركز القومي للإنتاج الإعلامي، 1995م، ص9.

[5] لم يهمل الفقهاء والعلماء الضوابط التي تحيط بالعملية الفنية، فهذا عبد الغني النابلسي في كتابه (إيضاح الدلالات في سماع الآلات) يوضح أن استعمال الآلات الموسيقية وسماعها تعتريه الأحكام المختلفة بحسب الأحوال، فيحرم إذا كان لاستثارة الشهوات أو للتلهّي وإضاعة لوقت وترك الواجبات، وهو يباح لإراحة النفس من المتاعب بعض الوقت لاستعادة النشاط. وقد عقد محمد عمارة في كتابه (الإسلام والفنون الجميلة) مبحثاً خاصاً بالروايات التي استدل بها بعض العلماء والباحثين على حرمة الغناء والمعازف، وبيّن ضعفها، ورأي أكابر علماء الحديث فيها. انظر:

– عمارة، محمد. **الإسلام والفنون الجميلة**، القاهرة–بيروت: دار الشروق، ط1، 1991م، ص56.

[6] يتحدث أحمد الزرقا عن هذه القاعدة فيقول: "والحاجة هي الحالة التي تستدعي تيسيراً أو تسهيلاً لأجل الحصول على المقصود، فهي دون الضرورة من هذه الجهة، وإن كان الحكم الثابت لأجلها مستمراً، والثابت للضرورة مؤقتاً." انظر:

– الزرقا، أحمد. **شرح القواعد الفقهية**، دمشق: دار القلم، 2001م، ص209.

فيها تأثيراً عجيباً، فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يُنوّم، ومنها ما يُضحك، ويُطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس، ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الأوتار حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج، ليس له علاج، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عمّا يبكيه إلى الإصغاء إليه. والجَمَل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخفّ معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولّهه، فترى الجمال إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمدّ أعناقها، وتصغي إلى الحادي ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها... فإذاً تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته."[7]

ورأى بعض العلماء أن الفن يؤدي دوراً حضارياً، ويحقق مقصد السير في الأرض والنظر؛ إذ النظر في الإرث الفني والمعرفي للأمم السابقة، سيمنح المسلم خاصة والإنسان عامة، فرصة التعرف على طبائع هذه الأمم، وأنماط الثقافة، فيكتسب جزءاً لا بأس به من المعارف، فضلاً عن العبرة والاعتبار مما حدث لهم، لذلك لم يألف التاريخ الحضاري للأمة عبارات وأفعالاً تحضّ على هدم ميراث الأمم السابقة في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية إلخ. وهذا نابع من الوعي بأهمية هذا التراث في الاعتبار على الأقل. فتحت عنوان (الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها) تحدث محمد رشيد رضا في مجلة المنار عن أهمية الفن في المجال الحضاري، وفي حفظ هوية الشعوب. ورأى بأن في حفظ المنجزات الفنية للأمم والشعوب حفظاً للحقيقة، وشكراً وتقديراً للمبدعين وصناع تلك الحضارات. فهو يقول: "يوجد في دور الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلاً، يحققون تاريخ رسمها، واليد التي رسمتها، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب.. إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة

[7] الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة، 1982م، ج2، ص275.

في تحريره، خصوصاً شعر الجاهلية، وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل... إن هذه الرسوم قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية... فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها.. وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرّم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من وجهة العمل."[8]

2. الفن الإسلامي والمرجعية:

عندما نتحدث عن مرجعية أي مجال معرفي من مجالات الحياة، فنحن نتفحّص أصول هذا المجال ورؤيته الكُليّة التي بلورته نتاجاً معرفياً. وفي خطابنا الإسلامي ثمة مرجعية محددة صاغت النظام المعرفي الإسلامي مذ نزول القرآن الكريم، وهي المرجعية التوحيدية القرآنية، التي كان لها تمثّل في معظم المجالات المعرفية في الحضارة العربية الإسلامية. وهي التي ضبطت التفكير الإسلامي وصانت وجوده، وأسهمت في تأسيس خطاب متجاوز ومتمايز عن الخطابات التي كان لها حضور عالمي مثل الخطاب اليوناني والروماني والهندي والفارسي. من هنا قام العقل المسلم باستيعاب ما عند الأمم الأخرى، بل تجاوز ذلك من خلال إحلال منظومة معرفية مستقاة من البنية العقدية المتجلية بمبدأ التوحيد. لذلك كان التوحيد محرراً للمسلم من الهيمنة المعرفية؛ ماضياً وحاضراً.

ثمة جهود كبيرة بذلها بعض العلماء من أجل الكشف عن دور التوحيد في بناء الحضارة بشكل عام، والفن بشكل خاص، فقد سخّر المرحوم الفاروقي جزءاً لا بأس به من كتاب (التوحيد) وكتاب (أطلس الحضارة الإسلامية) للكشف عن دور التوحيد في الفن، بوصف التوحيد قيمة عليا وضابطاً منهجياً للعقل المسلم؛ إذ رأى أن "النظرية المقبولة في الفن الإسلامي هي تلك التي تعود بفرضيتها إلى عناصر نابعة من داخل الدين (الإسلامي) والثقافة (الإسلامية) لا من معطيات مفروضة عليه من تراث أجنبي.. وهي كذلك نظرية تعتمد على أهم العناصر في تلك الثقافة، لا على عناصر ضئيلة أو أجنبية

[8] رشيد رضا، محمد. "الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها"، **مجلة المنار**، مج7، ج1، آذار 1904م، ص35.

تؤثر فيه. وإزاء هذه المطالب فإن القرآن الكريم يمدّ الإبداع الجمالي بمصدر مهم جاهز ومنطقي، وقد كان للقرآن أثر في الفنون بقدر ما كان له من أثر في مظاهر الثقافة الإسلامية الأخرى."[9] والتاريخ الحضاري للأمة يشير إلى "أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة قرآنية؛ لأن تعريفاتها وبناها وأهدافها وطرق الوصول إلى تلك الأهداف، تصدر جميعها عن ذلك الفيض من الآيات التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ في القرن السابع للميلاد. وليست معرفة (الحقيقة المطلقة) هي وحدها التي يستقيها المسلم من كتاب الإسلام المقدس؛ إذ يعادل ذلك في الحسم والتقرير ما يرد في القرآن الكريم من أفكار عن عالم الطبيعة والإنسان وسائر المخلوقات الأخرى، وعن المعرفة والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الضرورية لإدارة المجتمع بصورة سليمة. وباختصار عن كل فرع من فروع المعرفة والنشاط المألوفة." ويصل الفاروقي إلى نتيجة مفادها "مثلما يصح بالتأكيد رؤية هذه المظاهر من الثقافة الإسلامية على أنها قرآنية من حيث الأساس والدافع والتناول والهدف، فإن فنون الحضارة الإسلامية يجب أن ينظر إليها على أنها تعبيرات جمالية نابعة من ذات المصدر، وتتبع المسار نفسه. أجل إن الفنون الإسلامية هي فنون قرآنية حقاً."[10]

وبناء على ما سبق نجد أن الرؤية القرآنية ساعدت الفنان المسلم على ردم الهوة بين الذاتية والموضوعية؛ إذ غدا الإسلام ذاتاً وموضوعاً في الوقت ذاته، وأسهم هذا في عدم انفصام الرؤية كما وجدناها في الفن المسيحي على سبيل المثال؛ إذ كان الفن في خدمة الدين موئلاً وآليةً ومقصداً، بخلاف الفن الإسلامي الذي اتخذ من الدين رؤية ومنطلقاً في نتاجاته الفنية، وتفاعل مع الثقافات التي جاورت الحضارة العربية الإسلامية أو العناصر الثقافية التي احتضنتها الثقافة والحضارة الإسلامية، فأضافت تلك العناصر مكنوناتها الحضارية إلى الثقافة الإسلامية، مع احتفاظ الحضارة الإسلامية الكامل بالرؤية القرآنية؛ إذ عمل الفنان المسلم على (تَبْيِئَة) ما كان يأخذه من عناصر ثقافية؛ لتتسق ونظامه المعرفي، وهذا ما يمثل مفهوم الاتساق والانسجام في الفن.

---

[9] الفاروقي، إسماعيل. ولوس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1988م، ص265.

[10] المرجع السابق، ص243.

كما أن المرجعية والرؤية القرآنية جعلت التنظير الفني والمعايير والنتاجات مرتبطة بمدى قربها أو بعدها عن هذه الرؤية القرآنية، لذلك تسقط المقولات التي رأت أن الفن الإسلامي هو كل ما صدر عن الفنان المسلم، بصرف النظر عن ارتباطه بالدين والرؤية القرآنية؛ لأن هذا يفتح المجال واسعاً لضم تيارات فكرية وفنية منحرفة عن بوصلة الرؤية القرآنية، مثل الأشعار الصوفية الإشراقية المنحرفة، أو حفلات الذِّكر الماجنة، أو الفن المكشوف إلخ. ومن هنا ظهر في الفكر الإسلامي ما يُسمى بالالتزام أو الفن الملتزم، الذي يعني بناء الأفكار وصوغ المصطلحات والمفاهيم واستخدام الوسائل والآليات، وإحداث النتاجات بناءً على رؤى وتصورات نابعة من الرؤية الكونية القرآنية. وبذلك يغدو الفنان المسلم معبراً عن هذه الرؤية الحضارية، ومحققاً لوظيفة الإنسان في هذا الكون من حيث الاستخلاف والتعمير.

3. الفن الإسلامي والنظريات الغربية:

تعرّض الفن الإسلامي –مثّل غيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية– إلى إسقاطات معرفية كثيرة من قبل الفكر الغربي؛ إذ جاءت التحليلات والتفسيرات لنشوء الفن أو بواعثه أو نتاجاته نابعة من تصورات غربية تتسق ورؤيتها المعرفية للوجود، لا النظرة الإسلامية لهذا الوجود، فكان الحكم على الفن الإسلامي انطلاقاً من مقاييس الفن الغربي. وهذا المنحى في التعامل مع الفن الإسلامي ضمن رؤية مركزية غربية، أثار المفكر الإسلامي إسماعيل الفاروقي، الذي رأى أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستشرقون الغربيون في دراسة الأعمال الفنية الإسلامية، بحيث زوّدوا الحضارة بكميات كبيرة من الدراسات المتصلة بالفن الإسلامي، إلا أن ثمة خللاً كبيراً في معالجة هذا الفن؛ تصوراً ومقصداً، فهو يقول: "يتبين لنا أن أولئك المستشرقين جميعاً بلا استثناء، بنوا على فرضية خاطئة، بل مغرضة، فحواها أن الإسلام لم يقف عند حد عدم المساهمة بشيء في فنون المسلمين عبر العصور، بل إنه عرقل اتجاهاتهم الفنية، وقيّدها، وأفقرها؛ بحيث انحصرت الإضافة الجمالية الوحيدة لهم في التفنن الدائم في كتابة الآيات القرآنية بالخط العربي."[11]

[11] الفاروقي، إسماعيل. **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد محمد السيد عمر، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2016م، ص407.

وقام الفاروقي بنقد عدد من المستشرقين ومنهم: آرنست هيرتزفيلد، وديماند، وآرنولد، وكريزويل، وجرونباوم، وفارمر.[12] وقام نقد الفاروقي لآراء هؤلاء المستشرقين وغيرهم للفن الإسلامي على العديد من الملحوظات العلمية والمنهجية المتعلقة بدراسة الفن الإسلامي، ومن أبرزها:

الأولى: اختلاف المنظور الجمالي والمنهج الفني الغربيين عن المنظور والمنهج الإسلاميين في قراءة الفن الإسلامي ودراسته، أدّى إلى إنتاج تلك التصورات الخاطئة والآراء الجدلية المغرضة عند أغلب هؤلاء المستشرقين حول حقيقة الفن الإسلامي الجمالية والوظيفية. وفي هذا الشأن يأسف الفاروقي لأن "أيّاً منهم لم يدرك أبداً أنه يحكم على الفن الإسلامي بمعايير وأعراف الفن الغربي.. ومن هنا لم تكن تفسيراتهم للأعمال الفنية الإسلامية بوصفها تعبيراً عن الثقافة الإسلامية، وإنما كانت تخبطات فاحشة الخطأ، يستحي منها العقلاء"

الثانية: إن الدراسات الغربية حول الفن الإسلامي لم تكن في مجملها العام متوازنة من حيث توجيه الدراسة والاهتمام بأوجه هذا الفن وقضاياه المختلفة، بل كان أغلب هذه الدراسات –على رأي الفاروقي– متفاوت الاهتمام ومتناقض النظرة بين المجالات المعرفية لهذا الفن؛ إذ يمكن تصنيف أغلب تلك الدراسات في مجال تاريخ الفن الإسلامي، والتعريف به، وتنظيمه، وتصنيف المعلومات الخاصة به. وبسبب هذا القصور، فإن نظرية الفن الإسلامي والقيم الجمالية الإسلامية لا تزال مجالاً يخلو من الدارسين، وإن أي بحث إيجابي يجب أن يبدأ منذ البداية من النظرية ذاتها."[13]

وقدّم الفاروقي مشروعاً فنياً حضارياً يتسق والرؤية المعرفية للأمة التي تقوم على مبدأ التوحيد؛ إذ "النظرية المقبولة في الفن الإسلامي هي تلك التي تعود بفرضيتها إلى عناصر نابعة من داخل الدين (الإسلامي) والثقافة (الإسلامية) لا من معطيات مفروضة عليه من تراث أجنبي.. وهي كذلك نظرية تعتمد على أهم العناصر في تلك الثقافة، لا على

[12] المرجع السابق، ص407. انظر أيضاً:
– الفاروقي، إسماعيل. "التوحيد والفن (1)"، **مجلة المسلم المعاصر**، بيروت، عدد23، 1980م، ص163–176.

[13] لمزيد اطلاع انظر:
– حنش، ادهام. **نظرية الفن الإسلامي عند المفكر إسماعيل الفاروقي**، ضمن: **إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في إصلاح الفكر الإسلامي المعاصر**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2014م، ص391.

عناصر ضئيلة أو أجنبية تؤثر فيه. وإزاء هذه المطالب فإن القرآن الكريم يمد الإبداع الجمالي بمصدر مهم جاهز ومنطقي، وقد كان للقرآن أثر في الفنون بقدر ما كان له من أثر في مظاهر الثقافة الإسلامية الأخرى."[14]

وتركيز الفاروقي على أن يكون التوحيد حجر الزاوية في أي فعلٍ أو تجلٍّ فني، أساسه أن هذا التوحيد:

– مبدأ فكري لإسلامية مفهوم الفن؛ إذ إن هذا المفهوم الإسلامي للفن يعارض المفهوم الغربي، الذي يُعدّ الفن "محاكاة فوتوغرافية ساذجة للطبيعة، بل هو بالأحرى محاولة للتمثّل لفكرة قبلية، وتجليات لحظية جزئية لأفكار الطبيعة والإنسان، الذي هو أغنى تجليات الطبيعة وأعقدها، ولهذا السبب اعتبرت هذه النظرية (الغربية) الإنسان مقياساً لكل شيء."[15]

– مذهب فكري لخصوصية الجمالية الإسلامية وآفاقها المعرفية المؤسسة لمفهوم (الفن الإسلامي) على أنه "فن النسق اللامتناهي أو فن اللامتناهي" الذي "يولّد عند الناظر (المتلقي) حدساً برفعة اللامتناهي، أي بالذي يفوق المكان والزمان" دون الادعاء بأن هذا "النسق نفسه يمثل ما يفوقه. فمن خلال تأمل هذه الأنساق اللامتناهية يتوجه ذهن المتلقي نحو الله". "فالنسق الذي لا بداية له ولا نهاية (منظورة أو متخيلة) والذي يعطي انطباعاً بالأبدية.. هو الطريقة الفضلى للتعبير الفني عن مبدأ التوحيد."[16]

ثانياً: الفن في التفكير المقاصدي: التأسيس النظري

ثمة أهمية كبيرة في الاتكاء على المدخل المقاصدي لتبيّن ماهية الفن الإسلامي في الرؤية الحضارية الإسلامية، فالمدخل المقاصدي "من المداخل التي يمكن تفعيلها في أكثر من مجال، فالتعرف على إمكانات هذا المدخل هي أولى الخطوات لتفعيله وتشغيله ضمن قضايا بحثية، أي البحث عن الإمكانات الوصفية والتحليلية والتفسيرية والتقويمية."[17]

---

[14] الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص265.

[15] الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص409.

[16] الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص246.

[17] عبد الفتاح، سيف. "المنهجية الإسلامية: مقدمات وتطبيقات"، **قضايا إسلامية معاصرة**، بيروت، عدد5، 1999م، ص16.

ويعني هذا بأن المدخل المقاصدي ذو صبغة علمية في تناول المجال المعرفي المراد الحديث عنه أو توصيفه؛ إذ يستقرئ هذا المجال المعرفي ويصفه –وهو في دراستنا هذه الفن– في الأصول التأسيسية المتمثلة في القرآن والسنة، والتراث، والحاضر، ومن ثم يفسّر تجليات الفن في النظام المعرفي الإسلامي وفي تطبيقاته في الحضارة من خلال ملاحظة شبكة من العلاقات السببية التي يمكن أن تشكل نظرية قادرة على التفسير. والمدخل المقاصدي يسهم في إنتاج رؤية قادرة على الاستشراف والتوقُّع من خلال الربط بين النتائج المتوقعة والأسباب التي تؤدي إليها، والنظر إلى ملاحظة الثبات في الطبائع، وانتظام حدوث الوقائع. وفي هذا حثّ للعقلية الإسلامية على التحضير للغد؛ القريب والبعيد. ويساعدنا المدخل المقاصدي على التحكّم في سيرورة المجال المعرفي، من خلال تفحّص كل عملية من العمليات الثلاث السابقة (الاستقراء أو الوصف، والتفسير، والاستشراف).

ولأن التفكير المقاصدي قائم على الحِكمة وتحفيز العقل المسلم على تفعيل النص في الحياة، واكتشاف مراد النص؛ إذ "كل حكم ورد في كتاب الله وبيّنته سنة رسوله ﷺ، فهو مشتمل على حكمة معقولة المعنى، ظاهرة أو كامنة، تظهر بمزيد تدبر للنص، أو سير في الأرض، أو نظر في الواقع."[18] ولأنه كذلك قائم على الربط بين النص بوصفه المظلّة الأساس للرؤية الإسلامية، والواقع بوصفه مجال تفعيل النص، والحكمة من وراء ورود النص في هذا الواقع. فهو حاضر في الزمان والمكان كل حين، كلما كان هناك تدبّر للنص، ومستجدّ في الحياة، ووعي كبير بالمنحة الاستخلافية التي وهبها الله للإنسان؛ إذ "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل، وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع."[19]

وبناء على ما سبق، فإن هذه الدراسة ستنظر إلى موقع الفن في الرؤية المقاصدية ضمن منهج التفكير المقاصدي الذي "يخرج بالعقل المسلم من طريقة التفكير الذّريّة أو

[18] العلواني، طه جابر. **مقاصد الشريعة**، بيروت: دار الهادي، ط2، 2005م، ص125.

[19] الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993م، ص45.

التجزيئية، إلى طريقة التفكير الكلية الشاملة، ومن الثنائيات المنطقية التقليدية، إلى مستويات عليا من التفكير أو التأمل الفلسفي أو الغائي؛ ما يشكّل منطلقاً للتطوير والابتكار."[20]

1. موقع الفن في سلم المقاصد:

تحدث العلماء كثيراً عن المقاصد من حيث تعريفها وأهميتها، وأقسامها، وعلاقتها مع بعضها.[21] وليس من هدف الدراسة البحث في تفاصيل ذلك، إلا بما له اتصال بالفن، لا سيما في مسألة موقع الفن في التفكير المقاصدي.

فصّل العلماء في الحديث عن مراتب المقاصد في الشريعة (الضرورية والحاجية والتحسينية)، وعرّفوا كلّ نوع من هذه المراتب؛ فالمقاصد الضرورية هي ما لا بدّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدنيا إلى استقامة.. وهي ممثلة في الضروريات الخمس: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. أما المقاصد الحاجية؛ فهي كل ما هو مفتقر إليها من حيث التوسعة، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة بفوت المطلوب. والمقاصد التحسينية متعلقة بمحاسن العادات وهي محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجية؛ إذ ليس فقدانها بمخلٍّ بأمر ضروري ولا حاجي، وإنما جرت مجرى التزيين والتحسين.

ومما يلاحظ بأن العلماء بنوا علاقة عمودية لهذه المقاصد في الأهمية والتراتبية، فـ"الضرورية في الشريعة أصل للحاجية والتحسينية، فلو فرض اختلال الضروري بإطلاق لاختلا (الحاجي والتحسيني) باختلاله بإطلاق، ولا يلزم من اختلالهما أو اختلال أحدهما

[20] عودة، جاسر. "توظيف مقاصد الشريعة في ترشيد سياسات الاقتصاد المعرفي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، س18، عدد70، خريف 1433هـ/2012م، ص61.

[21] يحلل طه عبد الرحمن مفهوم المقاصد تحليلاً قيمياً معرفياً على النحو الآتي، فيقول: "يستعمل فعل قصد ويفيد المضادة لفعل لغا من اللغو بمعنى الخلو من الفائدة، وضد سها من السهو، وهو التوجه والوقوع في النسيان. والقصد هو حصول التوجه والخروج عن النسيان، وهو ضد لها من اللهو، وهو الخلو من الغرض الصحيح. والقصد هو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع.. وللمقصد بهذا المعنى مضمون قيمي، فيكون القصد بمعنى حصّل فائدة أو حصّل نية أو حصّل غرضاً، فيشمل علم المقاصد إذ ذاك على ثلاث نظريات أصولية متمايزة فيما بينها: نظرية المقصودات، وهي تبحث في المضامين الدلالية للخطاب الشرعي، ونظرية القصود وتبحث في المضامين الشعورية أو الإرادية، ونظرية المقاصد، وتبحث في الخطاب القيمي للخطاب الشرعي." انظر:
– عبد الرحمن، طه. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، د.ت، ص98.

اختلال الضروري بإطلاق.. قد يلزم من اختلال التحسيني بإطلاق اختلال الحاجي بوجه ما، وقد يلزم من اختلال الحاجي بإطلاق اختلال الضروري بوجه ما، فلذلك إذا حوفظ على الضروري، فينبغي المحافظة على الحاجي، وإذا حوفظ على الحاجي، فينبغي أن يحافظ على التحسيني، إذا ثبت أن التحسيني يخدم الحاجي، وأن الحاجي يخدم الضروري، فإن الضروري هو المطلوب."[22]

إن نصّ الشاطبي السابق ذو دلالات مهمة في منهج التعامل مع المقاصد وعلاقتها بمجالات الحياة؛ إذ إن العلاقة بين المراتب الثلاث ذات اتصال وانفصال بوجه ما، وهذا يعتمد على موقع الضروري والحاجيني والتحسيني من بنية المجتمع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية...، وأهمية المجال المعرفي في التعبير عن الهوية والعقيدة.

وبناء على هذا التصوّر فإن منهج التفكير المقاصدي ينظر إلى أولويات البناء المقاصدي بالارتباط بالزمان والمكان وبنية المجتمع، ومدى حضور الثقافة الإسلامية أو العقيدة في هذا المجتمع، عندئذ يصبح السلم المقاصدي والتراتبية المقاصدية عملية حيّة (ديناميكية) وليس جهازاً مفاهيمياً ساكناً، يؤخذ تعريفاً جامعاً مانعاً وبحدّية مطلقة.[23] ولعل عدم معرفة موقع التحسيني من الحاجي والضروري، وعدم الوعي بماهية هذا التحسيني، سيؤدي إلى خلل في تنظيم أولويات المقاصد، فعلينا ألا نبالغ في التحسيني، فيغدو مقارباً للحاجي أو الضروري، فتغدو الفنون غاية لا وسيلة، في ظرف قد يعاني فيه المجتمع من فقر وجهل كبيرين.

صنف كثير من العلماء والباحثين الفنَ والجمالَ ضمن مرتبة التحسينات، بوصفه تزييناً. وجاء هذا التصنيف من طرق عدة؛ فمن العلماء من تدبّر الآيات القرآنية واستنبط

---

[22] الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: محمد عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م، ص206.

[23] نلمح هذا الوعي في تلمّس مصطفى الزرقا لماهية التحسينات؛ إذ يقول: "التحسينات منها ما هو من المندوبات؛ أي المطلوبة طلباً خفيفاً على سبيل الأولوية والأفضلية، كآداب الطعام ونحوها، ومنها ما هو من الفرائض؛ أي المطلوبة شرعاً على سبيل الحتم والإيجاب كستر العورة؛ لأن معنى كون الشيء من التحسينات هو أن الناس يمكنهم الاستغناء عنه في حياتهم المادية دون حرج، ولكنه يكون مما تقتضي الاعتبارات الأدبية المعنوية تحتيمه وإلزام الناس به." انظر:

– الزرقا، مصطفى. **المدخل الفقهي العام**، دمشق: دار القلم، ط1، 1988م، ج1، ص104.

منها الحكم والغايات، ومثال هذا ما قام به أبو حيان الأندلسي عندما تأمل قوله تعالى في سورة النحل ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ (النحل: 5-8)؛ إذ رأى في هذه الآيات ربطاً بين الضروريات والتحسينات، يقول: "فمنّ الله تعالى بالتجمّل بها، كما منّ بالانتفاع بالضروري."[24] ولا يتسع المقام لذكر النصوص القرآنية والحديثية التي استنبط منها العلماء والباحثون المقصد التحسيني. ولكن يعنينا هنا القول بأن المدخل النصي هو أحد طرق استكشاف المرتبة التحسينية.

أما المدخل الثاني فهو مدخل الفطرة والطبائع، وهذا ما ذكره ابن خلدون حين قال: "وإذا زخر بحر العمران حصّلت فيه الكماليات، وكان من جملتها التأنق في المصانع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها، مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله."[25]

وبناء على ما سبق كيف لنا أن نحدد مكانة الفن في سلم أولويات المقاصد؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تنطلق من الفهم المجتمعي لطبيعة الفن وحاجة المجتمع والأمة إليه، دون تعارض مع الأسس العليا الشرعية التي تحكم الفنون، وهي تلك التي أجمع عليها الأصوليون والفقهاء في نظرتهم الكلية إلة الفنون، ومما يتفق مع النص الصحيح والعقل الصريح والفطرة السليمة.

نستطيع القول بكثير من الاطمئنان إن ضرورة المحافظة على العقل من أهم الضروريات الخمس، وهي كما هو في التصنيف عند أغلب المقاصديين في النقطة الوسطى من الضرورات الخمس؛ إذ يسبقها الدين والنفس، ويتبعها النسل والمال (وهي نظرة قد تتغير بتغير الزمان والمكان وحاجة المجتمع). ولعل هذا الترتيب مستنبط من الأهمية؛ فالدين مقدم على النفس وهكذا. وتبقى هذه التراتبية اجتهادات من العلماء مبنية على استقراء لما ورد في القرآن والسُّنة.

[24] أبو حيان الأندلسي. محمد بن يوسف. **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت: دار الفكر، 1420هـ، ج6، ص507.

[25] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، القاهرة: دار الفجر للتراث، ط1، 2004م، ص401.

وإذا تفحصنا ضرورة العقل، سنجدها متصلة بكل ما من شأنه أن يضبط التصوّر؛ أي البحث في الرؤية الكلية للمسلم، التي تدور حول تصوّره للإله والكون والإنسان. ونستطيع ان نُدخل في دائرة هذا التصوّر كل مفردات بناء الشخصية المسلمة من: لغة وثقافة وفكر ومعرفة، فضلاً عن الفنون، بوصفها شيئاً فطرياً يميل إليه الإنسان، ويكتسبه بالممارسة، وينميه بالعلم.

فهل يمكن التعامل مع الفن ضمن دائرة الضرورة العقلية؟ انطلاقاً من أن كل مرتبة من المرتبات الثلاث (الضرورات والحاجيات والتحسينات) تتضمن سلماً في الأولويات؛ فهناك ضرورة عقلية في التحسينات، مع فارق جوهري وهو أنه عندما نتحدث عن الفن بوصفه ضرورة فإنه لا يصل إلى مرتبة الضروريات في ماهيتها ومآلاتها بما يتصل بمصالح الدين والدنيا، بل بالاعتماد على أهميتها في المحافظة على هوية المسلم وثقافته ونتاجه الحضاري.

تتطلب الإجابة عن السؤال السابق التزاماً بمنهج التفكير المقاصدي الذي تطرقنا إليه من قبلُ، وهو البحث العلمي المتعلق بالاستقراء والتفسير والاستشراف والتحكّم.

إن المتتبع لوضع الفنون بمجموعها في الوقت الحاضر، يجد انحداراً كبيراً في الرؤية والوسيلة والأهداف والمقاصد، مما أثر في بناء الذائقة الجمالية لدى المجتمع وتصوراته ونمط حياته. وأصبحت الفنون بشكلها الحالي تشكّل خطراً على الهوية، لا سيما بعد أن بسطت العولمة نفوذها في كل مكان. ومنذ زمن نبّه محمد قطب إلى ظاهرة الانهيار الفني وانهيار الذائقة؛ إذ قال: "ومن هنا تكون الفنون الجسدية كلها إسرافاً في التعبير، وخللاً يفسد الجمال الأكبر في حياة الإنسان: الرقص والنحت والصور العارية، والشِّعر المكشوف، والقصة التي تتحدث عن فورات الجسد، والموسيقى الصاخبة التي تعبّر عن هياج الشوق في الجسد الحيوان، والسينما العارية التي تعرض خليطاً من كل هؤلاء. إن الفن ينبغي له –وهو يعبّر عن الحياة الإنسانية– أن يراعي التناسق والتكامل والترابط في هذه الحياة. والجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون هو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الإنسانية الرفيعة، التي تتجاوب تجاوباً صحيحاً مع حقيقة الوجود، وذلك هو الجمال الذي يتصوره الإسلام."[26]

[26] قطب، محمد. **منهج الفن الإسلامي**، بيروت– القاهرة: دار الشروق، د.ت، ص96.

إن حديثنا عن وضع الفن ضمن المحافظة على العقل سيسهم في توضيح كثير من الإشكاليات التي رافقت جدلية الدين والفن أو الأخلاق (القيم) والفن. فثمة نظريات فنية نادت بـ(الفن للفن) وبأن الفن مقصود لذاته، وهدفه المتعة لا غير، وأن البُعد الجمالي واللذة هو الغاية الوحيدة للعملية الفنية. وبهذا فإن الفنان يستطيع الاستعانة بأية وسيلة لإحداث المتعة، سواء أكانت هذه الوسيلة مشروعة أم غير مشروعة، أخلاقية أم غير أخلاقية.[27] لذلك تفتقد بعض الأعمال الفنية القيمَ والرسالةَ فتغدو عبثية. وهي في هذا تتناقض كلياً مع مقاصد الشريعة التي ترى الفن وسيلة لا غاية، وبأن ثمة هدفاً وغاية لكل عمل انطلاقاً من قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ (المؤمنون: 115) دون إهمال للمشهد الجمالي؛ إذ "إن الغاية التي يهدف الفن الإسلامي إلى تحقيقها هي إيصال الجمال إلى حس المشاهد (المتلقي)، وهي ارتقاء به نحو الأسمى والأعلى والأحسن؛ أي نحو الأجمل، فهي اتجاه نحو السمو في المشاعر والتطبيق والإنتاج، ورفض للهبوط."[28]

ولعل المتتبع للتصوّر الإسلامي للفن من خلال الآيات القرآنية والسنة النبوية وتصرفات الصحابة، سيجد هذا الوعي الكبير بغاية الفن المتمثلة في القيم والأخلاق والتعبير عن الحياة، بما عُرف بعد ذلك بالفن الملتزم.[29] لا سيما أن هناك مقاصد خاصة غير قليلة للفنون منها: التربية والتعليم،[30] وتنمية الذائقة الفنية لدى الفرد، والاستجابة للفطرة البشرية، والدعوة.

---

[27] اعترض بعض الفلاسفة الغربيين على نظرية الفن للفن، ومن هؤلاء الفلاسفة هيغل الذي ربط بين الأخلاق والفن، ورأى أن الفن الحقيقي هو الذي يهذب الأخلاق، وقال: "إن تهذيب الأخلاق هو الذي يشكل هدف الفن." انظر:

– هيغل، فريدريك. **مدخل إلى علم الجمال: فكرة الجمال**، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، ط3، 1988م، ص53.

[28] الشامي، صالح. **ميادين الجمال في الظاهرة الجمالية في الإسلام: الطبيعة–الفن–الإنسان**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1988م، ص215.

[29] يمكن الرجوع إلى لفتات المفسرين في تفسيرهم لسورة الشعراء، وتقصّي مواقفهم التي يجمعون فيها على البُعد الرسالي لا العبثي للفن، انطلاقاً من مبدأ الفن للمجتمع لا الفن للفن. كذلك نستطيع تبيّن مواقف كثيرة للرسول ﷺ وللخلفاء الراشدين مع الشعراء وتوجيههم بما يخدم الدعوة والمجتمع، وإقامة الشعر والفن انطلاقاً من التصوّر الإسلامي للوجود.

[30] نذكر في هذا السياق اللفتة الحكيمة للإمام القرطبي في تسويغه عِلّة إباحة لعب الأطفال بالتماثيل المجسمة؛ إذ يقول: "قال العلماء وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن." انظر:

إن نظرة المقاصد إلى الفن بوصفه وسيلة مجتمعية للحفاظ على هوية المسلم وفكره ضمن ما يُسمى بالأمن الفكري،[31] سيعمل على بلورة تصوّر إسلامي للفن، قائم على غاية الفن ورسالته وتأثيراته الاجتماعية، لا سيما أن ثمة مجتمعات غربية تولي الفن منزلة مهمة، وثمة حضور إسلامي في بعض هذه المجتمعات، وهو بحاجة إلى إثبات وجوده وحضوره في شتى الميادين، وسيكون للفن عندئذ مكانة مهمة في الخطاب الإسلامي. وندلل على هذا بإسهامات علي عزت بيجوفيتش وتركيزه على الفن في خطابه الإسلامي لمجتمع البلقان،[32] وكذلك روجيه غارودي. وهذا الحرص على دور الفن في البناء الحضاري دعا أحد الباحثين إلى المبالغة بالقول: "الفنون الجميلة ضروريات في الأمم وإن عُدّت نوافل في آحاد الناس."[33] وأشار الفاروقي في كتابيه المهمين: التوحيد، وأطلس الحضارة الإسلامية، إلى دور الفن في تعضيد بنيان المجتمع، فلم يعد الفن لوناً من متع الحياة الدنيا، وأداة من أدوات الزينة فحسب، بل هو كذلك "نمط جمالي يقدم أعمالاً تبعث على التأمل الجمالي والمتعة النفسية، وتدعم فكر المجتمع الأساس وبنيته، وتكون عاملاً دائماً للتذكير بمبادئه."[34] لذلك فالنظرية المعرفية الفنية الإسلامية كانت تركز دائماً على المعنى دون إهمال الشكل، وعلى البناء والإصلاح في جميع المجالات. ومن هنا كانت الرؤية المعرفية والتصوّر الإسلامي الإنساني حاضراً في العمل الفني، في حين افتقدناه في الأعمال الفنية ذات توجه (الفن للفن).

2. الفن والواقع:

ينطلق الفكر المقاصدي من فاعلية حركية لثلاثية: النص–الإنسان–الكون/الواقع. فالنص يمثل المنطلق والمرجعية التي تضبط حركة المسلم، ويتكئ عليها في ممارسة الاستخلاف والعمران في هذا الكون. ويعني هذا تفعيلاً للنص في الواقع. ويتم هذا من

– القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، القاهرة: دار الحديث، 2005م، ج14، ص560.

[31] يقول ابن عاشور: "ومن التحسيني سد ذرائع الفساد، فهو أحسن من انتظار التورط فيه." انظر:

– ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2004م، ص81.

[32] انظر ذلك في كتابه القيم: الإسلام بين الشرق والغرب.

[33] غريب، سمير. **في تاريخ الفنون الجميلة**، القاهرة: دار الشروق، ط1، 1988م، ص99.

[34] الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص244.

خلال الإنسان المجتمعي الذي يعمل على استيعاب ثقافة الأمة، وتمحيص غثها من سمينها، وتجاوز ذلك بتحديث الثقافة، وأخذ ما يلائم ثقافة المجتمع، فهو يقدم ثقافة واعية وواقعية، ليست بعيدة عن ثقافة المجتمع والأمة. وهو إنسان يعمل على تفعيل الطاقات المجتمعية تجاه أفكاره، والتعبير عن ضمير المجتمع، وتقريب المسافة بين المنشود والموجود.

والفكر المقاصدي يربط بين مهمة الإنسان في مجتمعه من جهة؛ إذ هو أداة التغيير والناقل للنص إلى حيّز التفعيل، ومهمته في الحياة من جهة أخرى؛ إذ هو مأمور بأن يعمّر الأرض، ويحقق قيمة من القيم الحاكمة الثلاث في المنظور التوحيدي (التوحيد والتزكية والعمران). ويتطلب تحقيق إعمار الأرض الأُنس بالاجتماع مع الآخرين والتعارف معهم، بدءاً بالأسرة النووية (زوج وزوجة) وانتهاء بالبشرية؛ إذ إن التجمع الإنساني فطرة بشرية، ولا يكتمل البُعد الفردي إلا بمضمون اجتماعي، يتجسد في مردود إيجابي في فضاء المعاملات الإنسانية.

وتتأصل فكرة الصلة العضوية بين الإنسان والمجتمع من خلال تكليف الإنسان بأن يكون خليفة الله على الأرض، فحمل بذلك الأمانة، وتحمّل المسؤولية. فالعمران بذلك سعي بشري لتوظيف طاقات الإنسان في بناء حياة عامرة بالخير، وتحقق مقاصد الخلافة في الأرض واستعمارها، واستخراج طاقاتها، واستعمالها في تيسير سبل الحياة.[35]

وبما أن الخطاب المقاصدي ينطلق من فاعلية العلاقة بين النص والإنسان والواقع، فإن هذا يعني مراعاة الزمان والمكان في الخطاب المقاصدي، دون أن يؤثر هذا في حكمية النص، فلا يعني تغير الأحوال تغيّر الأحكام. وإذا كان الفكر المقاصدي متصلاً –كما سنرى– بسد الذرائع، فذا يعني تجديداً واستحضاراً لأسئلة العصر، وفهماً أكبر للواقع؛ أي إن الأسئلة التي كانت مرتبطة بالفن قديماً وضمن سياقات مخصوصة، ينبغي للفكر المقاصدي أن يتجاوزها، لا سيما في ظل التضارب الكبير في الآراء؛ لأن أسئلة العصر والواقع تحتاج آليات جديدة توازن بين النظرية المعرفية للفن الإسلامي من جهة، والإنتاج الفني الحضاري بوصفه جزءاً من الإرث الحضاري للأمة من جهة أخرى، وتطورات العصر وذواتنا المعاصرة من جهة ثالثة.

---

[35] انظر حديثاً مفصلاً عن العمران بوصفه قيمة عليا حاكمة في:

– ملكاوي، فتحي. **منظومة القيم العليا: التوحيد–التزكية–العمران**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2013م.

ومن المعالم المضيئة في هذا السياق أن التفكير الفقهي ومقاصد العمران منذ العصر الأموي، بدأت تعي الضرورة الحضارية الممثلة بشكل كبير في العمارة وتشييد المساجد؛ إذ نجد المضاهاة في العمران بحكم المجاورة الحضارية، والاستناد إلى فكرة البديل الحضاري، التي أتاحت للعقل المسلم أن يبدع ويزوّود الحضارة الإنسانية بأعمق النظريات الفنية.

إن فكرة البدائل الحضارية جزء أصيل من التفكير المقاصدي، وهي متصلة بالمصالح المرسلة وبسد الذرائع لدرء المفاسد، وبفتح الذرائع لتحقيق المصالح، فهي مسيرة تفكيرية لا تتوقف ما دام هناك مستجدات ونوازل، وهدفها العودة بالنفع على المسلمين. وثمة أمثلة كثيرة على هذا من عصر النبوة والخلفاء الراشدين والعصور الإسلامية الزاهرة. وما فكرة المنبر والأذان الثاني والمحاريب الدالة على القبلة واتخاذ القباب والأقواس ونحوها لضرورة انتشار الصوت، إلا من قبيل مسايرة الفكر المقاصدي للإجابة عن أسئلة العصر، والإتيان بالبدائل الحضارية. ويصف لنا الفاروقي كيف تفوّق العقل المسلم في إنتاج الجماليات الفنية بطريقة تخدم فكرة الوحدانية. يقول: "في قصر الحمراء توجد قبلة كاملة مصنوعة من عدد لا يحصى من الأقواس المتشابكة المستندة على أعمدة غير مرئية، يحتاج المرء لخيال متوهج حتى يستطيع أن يراها يقتفي مسارها. هنا يصبح زخم الأرابيسك حداً يدفع الراغب في تتبعه إلى أن ينطلق مع إيقاعه المتواتر.. بلغ استحواذ الألوهية المتعالية على وعي المسلم حد الرغبة في أن يراها معبراً عنها حيثما حلّ. وبلغ شغف ذلك الوعي بالتنقيب عن سبل ووسائل للإفصاح عن الحضور الإلهي حداً تفتقت معه عبقريته عن أعظم وأخصب نمط لتحقيق هذا المقصود عرفه الإنسان. فلم تقف قريحة الفنان المسلم عند حد ابتكار الأرابيسك اللامتناهي في التنوع في الفنون المرئية، بل طوّع كل مادة فنية متصوّرة بحيث تصير مرآة عاكسة لجوهرها. وظلت قريحته بعد ذلك كله متأهبة لتحقيق نصر نهائي آخر في هذا المضمار."[36]

وفكرة البديل الحضاري قائمة على سد الذرائع من جهة، وفتح الذرائع من جهة أخرى، انطلاقاً من أن الله ﷻ إذا منع شيئاً فتح للإنسان مجالاً يسد مكان الممنوع، ووفر

[36] الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص436-437.

له بديلاً يتسق مع فطرته، فقد منع تعالى الربا، وأوجد الزكاة وأبواب الاقتصاد المباحة، وحرّم الزنا، فأوجد مؤسسة الزواج إلخ. وقد أسهمت فكرة سد الذرائع وفتحها في تنمية الفكر الإبداعي عند الفنان المسلم، فلم يعد الجهاز الفني (مفهوماً وتطبيقاً) شيئاً ثابتاً وانموذجاً جاهزاً وأصمّ، يسير الفنان المسلم على هداه، فيحذوه حذو النعل بالنعل، بل غدا يبحث عن الممكن المتصل بالنظرية المعرفية الإسلامية، التي يُعدّ التوحيد نقطة الارتكاز فيها، فهذا التجريد وهو من أعلى تجليات الأسلبة "مصدره تحوّل كبير في روح الحضارة الإسلامية، التي جعلت محور الوجود هو الذات الإلهية، والإحساس بقدرتها اللانهائية، وتجردها عن كل تجسيم أو تحديد، فالمكان والزمان لا يمكن تحديدهما في شكل محسوس أو صيغ محددة. ومن هنا جاءت كراهية العرب في الإسلام لتصوير الأجسام الحية بالنحت أو التصوير، وظهر عزوفهم عن صناعة الأصنام. ومن هنا مالت الفنون إلى تقديم الفكرة بالنسب الهندسية والرموز، وتميّز التصوير الإسلامي بالزخرفة الخطية الهندسة أوالتوريق، وتميزت العمارة بمآذنها وسموقها إلى الملأ الأعلى. وكان تكرار الوحدة إلى ما لا نهاية في الموسيقى والشعر دليلاً على هذا الاتجاه نحو اللاتناهي."[37]

ثالثاً: الفن في التفكير المقاصدي: البرنامج العملي (بناء تصوّر قائم على الدراسات البينية)

يتسم التفكير المقاصدي بالموازنة بين النظر والعمل، فهو ليس معرفة نظرية فحسب؛ إذ إن تصحيح مسار المسلم هو المقصود من العملية المقاصدية، بناء على الترابط الثلاثي سابق الذّكر (النص–الإنسان–الواقع). وتأسيساً على هذه الخصيصة للتفكير المقاصدي، كيف يمكننا بلورة تصور حول برنامج للفنون بناءً على مقاصد الشريعة، منطلقين من أهمية الدراسات البينية في تحقيق توازن بين البنية المعرفية الإسلامية الممثلة في الأصول التأسيسية (القرآن الكريم والسنة النبوية) والتراث الحضاري من جهة، وعلوم العصر من جهة أخرى. وهذا التوازن بين المعرفة والعلم سيسهم في تحديد نوعية الخطاب الفني المناسب للمرحلة، وسيعمل على تأسيس البرنامج المتصل بالفن بناء على التصوّر المعرفي والوظيفة الحضارية للفن أولاً (المعرفة)، وليس على تركيبته وبُعده الفني (العلم) والجمالي.

[37] مطر، أميرة حلمي. **مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن**، القاهرة: دار المعارف، ط1، 1989م، ص131.

ما من شك في أن للدراسات البينية[38] موقعاً مهماً في النظر إلى العلوم نظرة كلية شاملة؛[39] لا سيما بعد تجزئة العلوم بشكل كبير جداً بداعي التخصصية؛ إذ برزت الحاجة إلى تعاون العلوم لتفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية خاصة، لا سيما أن المنهج الأحادي في تفسير الظواهر يعاني عجزاً كبيراً في الإقناع؛ لأنه ينظر من زاوية واحدة، دون مراعاة خصيصة التعقيد والتركيب في الظاهرة محلّ الدراسة.

ومنذ القِدَم "كان الحكماء والعلماء يتحدثون عن التكامل بين العلم والعمل. وأكّد ابن رشد إمكانية الاتصال بين "الحكمة والشريعة"، وشدد ابن تيمية على التكامل و"درء التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول"، وجمع القشيري وغيره من المتصوفة بين "الطريقة والحقيقة"، ثم جاءت محاولات بناء التكامل بين المبادئ والنظريات والبحوث العلمية من جهة، وتطبيقاتها العملية من جهة أخرى. وظهرت في مطلع القرن العشرين حاجة الفيزياء إلى الرياضيات، وحاجة البيولوجيا إلى الكيمياء، فظهرت العلوم البينية التي تؤكد اعتماد التطور والتقدم في علم من العلوم على علم آخر أو علوم أخرى"[40]

---

[38] تتعدد المسميات الدالّة على الدراسات البينية، فهناك التداخل المعرفي، والتشارك المعرفي، والتكامل بين العلوم، والتكامل المعرفي بوجه من الوجوه إلخ. ولا مشاحّة في الاصطلاح في جميع المسميات، فدلالتها واحدة، وهي تتمثل في التعالق والتواشج بين العلوم لدراسة ظاهرة معينة، كأن تُدرس ظاهرة الفقر بالإفادة من علم الاقتصاد والاجتماع والنفس إلخ. ولعل هذا الدرس المعرفي المتكامل نابع من الظاهرة المركبة للإنسان والكون، فلا نستطيع دراسة الإنسان من زاوية واحدة، فهو مركب من عدة أبعاد (سلوكية ووجدانية وعقلية).

[39] للاستزادة في تبيّن موقع التكامل بين العلوم، والتكامل المعرفي، وأهمية هذا في تكوين شخصية المسلم، يمكنه استقصاء هذا من خلال مدرسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومشروع إسلامية المعرفة، وذلك في ثلاثة اتجاهات: التكوين الفكري لأعلامه، لا سيما ما نجده في شخصية كل من: الدكتور إسماعيل الفاروقي، ونستطيع تلمس هذا في مجمل كتاباته، خاصة كتاب التوحيد، وكتاب أطلس الحضارة الإسلامية، ومجمل مقالاته في مجلة المسلم المعاصر. وشخصية الدكتور طه جابر العلواني لا سيما في دراساته القرآنية وتركيزه على الجمع بين القراءتين، واستقصائه لمفهوم إسلامية المعرفة في التراث. وكذلك شخصية الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، لا سيما في كتابه الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، وكتاب أزمة العقل المسلم. وشخصية الدكتور فتحي ملكاوي، لا سيما في كتابه منهجية التكامل المعرفي، وكتاب البناء الفكري. أما الاتجاه الثاني، فنتلمسه في نتاجات المعهد، سواء كان ذلك من خلال المؤتمرات والندوات والملتقيات والدورات التدريبية، أو الكتب، أو ما نشرته مجلة إسلامية المعرفة. والاتجاه الثالث ماثل في البرامج الجامعية والأطر الأكاديمية، ومثال ذلك: كلية معارف الوحي في الجامعة العالمية الإسلامية في ماليزيا؛ إذ تُعدّ أنموذجاً جيداً على التكامل المعرفي والتكامل بين العلوم، فضلاً عن فكرة الجامعة بشكل عام القائمة على التكامل بين العلوم، والتصور الإسلامي للعلم والإنتاج المعرفي.

[40] ملكاوي، فتحي. **مفاهيم التكامل المعرفي**، ضمن: **"التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية"**، تحرير: رائد جميل عكاشة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2012م، ص20.

وتظهر هذه النظرة الكلية تجاه العلوم؛ إذ التركيز على التكاملية ومحاولة الإفادة من أكثر من علم لتفحّص الظاهرة مناط الحديث، في كثير من مقولات العلماء وأعمالهم، فذا أبو حامد الغزالي يقول: "على المتعلم ألا يدع فناً من فنون العلم، ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطّلع به على غايته ومقصده وطريقه، ثم إنْ ساعده العمر، وواتته الأسباب، طلب التبحّر فيه، فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض، ويستفيد منه في الحال، حتى لا يكون معادياً لذلك العلم بسبب الجهل به."[41]

ورأى السيوطي أن من أراد أن يتبحّر في علم التفسير وحده لا بدّ له من خمسة عشر علماً: اللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وعلم أسباب النزول، والقصص، وعلم الناسخ والمنسوخ، والفقه، والحديث، وعلم الموهبة.[42]

وبناء على ما سبق نلاحظ أن التكاملية قد غدت إطاراً مرجعياً ومعياراً لفهم العلاقات بين العلوم، وإعادة تنظيم ميادين المعرفة، بحيث تكتشف أواصر القربى بين العلوم، لا سيما بين تلك العلوم ذات الحقول الدلالية المشتركة (العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية...).[43] وهي منهجية مهمة في نقل العقل من إطاره الجزئي إلى فسحة التفكير الكلي، فيكون استيعابه للظاهرة أكثر شمولية وإحاطة.

وحتى نحقق المقصود من تنظيم دراسة الفنون بناء على مقاصد الشريعة والدراسات البينية، بوصفها إطاراً مرجعياً، ينبغي أن نجعل الإطار المنهجي التوحيدي حاضراً في كل مفصل من مفاصل التنظيم (مادةً أو روحاً ورؤيةً)؛ إذ هو المنطلق في التصوّر المعرفي والوجودي لأي فعل يقوم به المسلم، وفي أي مجال معرفي.

[41] الغزالي، أبو حامد. **ميزان العمل**، تحقيق: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص209.

[42] السيوطي، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص180.

[43] يرى أبو القاسم حاج حمد أن المنهجية القرآنية القائمة على التكامل هي الناظم الشمولي للكون في وحدة مظاهره المتكاثرة التي لا تقبل أشكالاً جزئية من المعرفة المادية أو الوضعية أو اللاهوتية، ولا تجزّئ بين نظرات القوانين بتقييد استخدامها في مجالات دون أخرى؛ ماوراء الطبيعة وعلوم الإنسان، وعلوم الطبيعة، وإنما تضع الحركة الكونية كلها، ما يفهم أنه وراء الطبيعة (الغيب)، وما يفهم منه أنه خاص بالإنسان (علم والنفس والاجتماع)، وما يفهم أنه خاص بالطبيعة المادية (علوم الطبيعة التجريبية والتطبيقية)، تضع ذلك في كلٍّ واحد متحرك بجدلية الغيب والإنسان والطبيعة، وضمن صيرورة خلق وتشيّؤ بتطورية غائية." انظر:
– حاج حمد، أبو القاسم. **منهجية لقرآن المعرفية: أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية**، بيروت: دار الهادي، ط1، 2003م، ص235.

ليس من هدف الدراسة تفحّص حاجة الفن الإسلامي إلى العلوم الأخرى، فهذا سيأخذ مئات الصفحات، كما أن هناك دراسات كثيرة تتبعت إفادة الفن من العلوم الأخرى، مثل الإفادة من علوم الرياضيات والهندسة والكيمياء، في تطوير البنى الفنية والمعرفية للفن الإسلامية،[44] ولكن الدراسة ستتجه نحو رسم الأُطر الكُلّية للبرامج الأكاديمية التي تدرس الفن الإسلامي.

ولعلنا نقدم بعض التصورات الكُلّية لطبيعة المساقات التي يمكنها أن تعمل على صوغ شخصية الفنان والمسلم أو الباحث في الفن الإسلامي خاصة. وذلك وفق مقاصد الشريعة والتكامل بين العلوم. علماً بأن هذه المساقات هي إطار كلي ووعاء توصيفي نستطيع النطلاق من خلاله في تطوير مساقات دراسية في الفن الإسلامي. وهذه المساقات المقترحة تدخل في الجانب المعرفي بشكل أكبر؛ إذ إن المواد الفنية التطبيقية البحتة أقرب إلى الحيادية في المنطلق والآلية والمقصد، مثل الحديث عن فكرة الألوان في الفن. وفيما يأتي بعض المقترحات:

1. مساقات تخدم البنية المعرفية الإسلامية: وتهدف إلى تبيّن عناصر التصوّر الإسلامي والرؤية الكلية للمسلم، وتلمّس مفردات هذه الرؤية، وتنظيمها في سلم أولويات حسب أهميتها في البناء، وتصنيفها حسب ثلاثية (الفكر والوجدان والسلوك)،[45] وتنظيمها في مصفوفات كلية يتبعها مصفوفات جزئية. فعلى سبيل التمثيل، سنجد أن التوحيد –بوصفه قيمة حاكمة عليا، وأساساً معرفياً وعقدياً للمسلم– يُعدّ منطلقاً رئيساً لأي تصور يقوم به المسلم تجاه الحياة؛ إذ سينعكس هذا التصوّر التوحيدي على فهم المسلم لطبيعة الفن، وهدفه، وأسسه، وبواعثه، ووظيفته، وانعكاسات هذا على هوية المسلم الفنية؛ فالتوحيد عند الفاروقي يُعدّ مبدأ الجمال، وهو الأصل الفكري والجوهر الفلسفي، والعصب المعرفي لنظرية الفن الإسلامي، وهو القاسم المشترك بين كل الفنانين المنطلقين من الرؤية الكلية الإسلامية، مهما اختلفت أعراقهم وديارهم.[46] وفيه تحقيق لمعنى

[44] ظهرت الحاجة إلى العلوم التطبيقية لا سيما الهندسة والرياضيات في كثير من الأنماط الفنية، لا سيما الرقش والزخرفة.

[45] نتأمل هذا في فن العمارة بشكل عام، وتشييد المساجد والمقامات بشكل خاص؛ إذ هو مزيج بين الروحي والمادي، وهذا نابع من الوظيفة الحضارية للمسجد؛ فهو مكان عبادة وتعليم وثقافة واجتماع؛ بذا تبرز الوظيفة التربوية والتعليمية والدينية والاجتماعية إلخ.

[46] الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص419.

الاستخلاف الذي يشتمل على بعدين: خلافة مادية من خلال التعمير في الأرض تعميراً مادياً، وخلافة روحية بالتزكية وبالترقية الروحية للإنسان: فرداً ومجتمعاً.[47] كما نستطيع من خلال المساقات الكشف عن أهمية التكامل المعرفي الذي يعدّ التجلي الأمثل لفهم المنهجية الإسلامية، والإطار المرجعي لها؛ إذ يصوغ رؤية المسلم المنهجية لمصادر المعرفة وأدواتها، وإلى الكشف عن العلاقة بين النص والعالم بوصفهما مصدرين، والعلاقة بين العقل والحس بوصفهما أداتين، والعلاقة بين المصادر والأدوات. وهذه المساقات ضرورة حضارية لمن أراد فهم بنية الفن الإسلامي وأصوله، ومنهجية بنائه ضمن رؤية كلية توضح التصوّر الإسلامي للوجود، مما يساعد على تمكين الباحث من تلمّس مقومات الفكر الفني الإسلامي خاصة، والفكر الفني عند الأمم والشعوب والحضارات الأخرى. كما يمكّنه من تجاوز سلبيات الفصل بين علوم الدين والدنيا، او الانفصام النكد بين علوم الشريعة والعلوم الاجتماعية والإنسانية وحتى التطبيقية.

2. مساقات في الدراسات المصطلحية: ويتم هذا من خلال تتبع المصطلحات والمفاهيم التي صاغت الفن الإسلامي. وتحقق هذه المساقات غرضين مهمين: أولاً: تفكيك الخطاب الاستشراقي الذي عمل على صوغ مفهوم الفن الإسلامي تبعاً لمركزيته ونظريته المعرفية وتصوره للوجود، والكشف عن التحيز الذي شابه أثناء صنع التاريخ الفني للحضارة العربية الإسلامية، إلخ. وثانياً: تتبع المفاهيم المتصلة بالفن والجمال في الخطاب القرآني والحديثي وخطاب الخبرة الحضارية، واستقراء مفاهيم النظر والاعتبار بوصفها منطلقات وأسساً معرفية تدعو الإنسان إلى الربط المحكم بين القراءتين: قراءة النص وقراءة الكون، فتكون لدى المسلم رؤية متصلة بالفكر والجمال؛ إذ الفكر متصل بالدعوة والاعتبار والإيمان، والجمال متصل بالمتعة، وبذلك ندمج بين ثقافة الصورة والسماع، وحضارة الفكر.

3. مساقات في القيم والأخلاق: فلا ينظر إلى الفن بعيداً عن القيم والأخلاق. وهنا نركز على المبدأ الأساس الذي انطلق منه الفلاسفة منذ القِدم وأكّد عليه الإسلام، وهو ارتباط الجمال (الفن) بالحق والخير. وأيُّ فصل بين هذه الثلاثية، سيؤدي إلى إلى عدم تحقيق مقاصد الإسلام العليا. لذلك يُعدُّ الحديث عن القيم في سلم أولويات ترتيب

[47] النجار، عبد المجيد. **عوامل الشهود الحضاري**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999م، ص237.

الفنون وفق مقاصد الشريعة، وذا أولوية قادرة على تنظيم رؤية الفنان المسلم بشكل خاص. واندماج القيم في الفن ليس مقتصراً على المسلم؛ فهو يشمل الذات الإنسانية؛ لأنها متصلة اتصالاً وثيقاً بالفطرة البشرية، وفيها تأكيد على وحدة الحقيقة. لذا ينبغي أن يحضر مبحث القيم والأخلاق في تأسيس أي برنامج يتصل بالفن، سواء أكان إسلامياً أم غير إسلامي؛ لأن القيم ستغدو معياراً مهماً على قبول العمل الفني أو عدم قبوله. وتقارب الأعمال الفنية بناء على مدى انسجامها مع القيم الإنسانية الفطرية.[48] وبهذا يتفاوت الدرس المعرفي لمكانة القيم في الفن بين الرؤية المعرفية الغربية والرؤية الإسلامية التوحيدية؛ فإذا كانت الرؤية الغربية قائمة على الفصل بين المعياري (القيمي)، والوضعي القائم على كل ما هو مادي، وانتصرت الوضعية في النهاية، فإن الرؤية التوحيدية الإسلامية "لا ترى وجود هذا التعارض مطلقاً، فالمسألة ليست تعارضاً وتقابلاً بقدر ما هي مسألة تكامل وتطابق، بمعنى أن هناك تلازماً بين المعيارية والوضعية، فالمنهج الإسلامي منهج وصفي تقريري أولاً، ومعياري قيمي ثانياً.. وهذه الفكرة (التلازم بين الوضعية والمعيارية) تتفق تماماً مع مضمون الوحي ومنطوق الكتاب والسنة، وهي مستوحاة من دلالة الآيات."[49] وهذا سيساعد على تمكين الباحث من استيعاب المسائل ذات العلاقة بالفن في بُعدها المنهجي والمعرفي، ومحاولة تفعيلها عملياً وبشكل يحقق الانسجام بين النظر والعمل.

4. مساقات في المثاقفة: ويتم من خلالها بناء تصوّر معرفي إسلامي لمنهجية التعامل مع المختلف (الآخر)، لا سيما أثناء لحظة بناء الفن الإسلامي وبدايات المثاقفة مع الحضارات المختلفة. وهذه نقطة مهمة متصلة بطبيعة التفكير المقاصدي؛ إذ يهتم التفكير المقاصدي بتتبع الجزئيات وتفكيك البنية من أجل الوصول إلى المقاصد الكُلّية والمقاصد الجزئية. ومن المعلوم عند المقاصديين أن المقاصد الكُلّية تتصل بالغايات العامة للشريعة

[48] من المناسب أن نفرق هنا بين القيم الإنسانية الفطرية، والقيم الاجتماعية؛ إذ إن القيم الفطرية ذات تجل واضح بين جميع الأمم، فالصدق صدق، ولا مدلول آخر يناقض ذلك، وكذلك الكذب. أما الأخلاق والقيم الاجتماعية المحلية، فهي اتفاق وتنظيم مجتمعي، يصطلح المجتمع على وضعه في شكل عرف أو قانون، وقد يتناقض كلياً مع الفطرة السليمة، مثل اتفاق المجتمع إباحة العلاقات الجنسية دون ضابط شرعي او أخلاقي او إباحة الشذوذ الجنسي، فتغلب القوانين والقواعد والعرف على الفطرة.

[49] أمزيان، محمد. "تلازم الموضوعية والمعيارية في الميثودولوجيا الإسلامية"، **مجلة المسلم المعاصر**، بيروت، أبريل، 1991م، ص73.

(حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال) وتتعلق بتشكيل الشخصية والمحافظة على الهوية. وتتصل المقاصد الجزئية بكل حُكم من الأحكام. وبناء عليه فالتفكير المقاصدي تفكير تفكيكي بنيوي؛ إذ يهتم بتفكيك بنية النصوص وبنائها، لتتبع التفاصيل من أجل الوصول إلى حكم عام أو مقصد عام. وهذا النوع من التفكير النقدي يساعدنا على دراسة فكرة الوحدة والتنوع في الفن الإسلامي التي هي فكرة من صميم الخطاب القرآني (وحدة الخلق الإنساني، وتنوع المشارب والاتجاهات)، ويعيننا كذلك في تتبع المؤثرات التي أثّرت في البناء المعرفي الفني الإسلامي، ومشارب الفن الإسلامي، ومدى قدرة الفن الإسلامي على استيعاب ما كان سائداً في محيطه البيئي والثقافي والاجتماعي، وتجاوز هذا بالتأثير في البنى الفنية للحضارات والشعوب الأخرى، ومدى حضور (الآخر) في البنية المعرفية والفنية للفن الإسلامي. وتبيّن قدرة الفن الإسلامي على تجاوز الأنماط المعرفية والفنية العليا التي كانت أنموذجاً للفنانين والفلاسفة. وتؤدي بنا إلى تفحّص حضور الثقافي في المعرفي؛ أي حضور تراث الأمم وثقافاتها في المعرفة الإسلامية. ومدى حضور الإسلام حضارة وثقافة ومدنية في تراث الأمم والحضارات.

5. مساقات في الإبداع والتجديد والاجتهاد: وتساعدنا هذه المواد على ملاحظة تطوّر الفكر الفني، والمنطلقات والأسس التجديدية في الفن، كما أنها تنمّي ملكة النقد عند المهتّم بحركة الفن، وتعين الفنان على الإبداع من خلال النظر في التراكم المعرفي والفني الذي حدث على الفن بشكل عام والفن الإسلامي بشكل خاص، والانطلاق من لحظة التراكم لا لحظة الصفر. كما أن هذه المساقات تساعد على تأطير فكرة البدائل المقاصدية، من خلال استيعاب ما ورد في الأصول التأسيسية (القرآن والسنة)، وممارسات التراث وتنظيراته، وما ورد في التراث الإنساني، الذي شكّل المعرفة الفنية الإنسانية في تجلياتها المتنوعة.

6. مساقات في الفكر الغربي: ويتم ذلك بدراسة تطور التفكير الغربي في مجال الفن، والفلسفة، لتبيّن مدى حضور الفكر الغربي المعاصر في الفنون المعاصرة؛ لا سيما بما أنتجته الحداثة وما بعد الحداثة وما بعد بعد الحداثة. فضلاً عن دراسة ثقافات المجتمعات المركزية في الثقافة الغربية بشكل خاص، مثل الثقافة الجرمانية على سبيل المثال لما لها من أثر في تطوير الفن الديني المسيحي، إلخ.

7. مساقات في بعض العلوم ذات العلاقة بالفن، مثل علم الاجتماع (علم اجتماع الفن)، وعلم النفس (علم نفس الفن)، وعلم الفلسفة ولمنطق من أجل محاورة العمل الفني وإكسابه قدراً مفيداً من التنظير، وعلم الرياضيات والهندسة لحاجتنا إليهما في اكتشاف قدرة الفنان المسلم في استثمار الرموز والنسب الهندسية في تشكيل فنه. إلخ.

وهذه بعض الرؤى حول تطوير المساقات الخادمة للفن، ومما يلاحظ أنها تتجه نحو الفنون التشكيلية والعمارة أكثر منها نحو الفنون التعبيرية والأدائية والشعر والأدب إلخ. وربما هذا متصل بالتجلي الأكبر للوحدانية والمرجعية؛ إذ بلورها الفنان التشكيلي والمعماري أكثر من سواهما. وتبقى رؤية صنع المساقات واحدة؛ إذ تنطلق من: مساقات تتصل بالرؤية الإسلامية الكلية (رؤية العالم)، ومنهجية التعامل مع الأصول التأسيسية والتراث، ومنهجية التعامل مع التراث الإنساني عامة، والغربي خاصة، بسبب عمق حضوره في الثقافات حاضراً.

خاتمة:

سيبقى الحديث عن الفن في الرؤية الإسلامية الحضارية حديثاً جدلياً، شأنه في هذا شأن معظم المعارف التي تتصل بتكوين شخصية الإنسان، ولها تعالق كبير بالدين. وسيبقى كذلك جدلياً؛ لانتمائه إلى مجالات معرفية متنوعة، وتصنيفات متعددة، لا سيما بما يتصل بالعلاقة مع الأدب وعلم الجمال. ولعل هذا يشكّل دافعاً كبيراً لدى المنتمين والمشتغلين بالفن الإسلامي نحو تطوير النظريات المتصلة بالفن الإسلامي، من خلال استيعاب المُنجز الحضاري الإسلامي في هذا النطاق، ومحاورته، وتنقيحه مما رسب فيه من مقولات وتنظيرات تفارق مقاصد الشريعة وخطاب الأصول التأسيسية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. والعمل على الإفادة من الخبرة البشرية الإنسانية؛ إذ لا يخفى على أحد ما أنتجته البشرية من تنظيرات وتطبيقات حول الفن، وضمن رؤى معرفية كثيرة؛ متقاربة ومتناقضة.

وبناء عليه فإن الفكر الإسلامي في هذا المجال لا يمكن تحققه حضوراً وشهوداً إلا من خلال هذه المقاربة مع الذات والآخر؛ ومع التراث والمعاصرة، دون تقديس أو

تهميش. وهذا يتيح فرصة ثمينة للبحث عن متن عربي إسلامي مناسب لأن يمثل النظريات الفلسفية والفنية والنقدية. لا سيما أن تفاعل الشخصية العربية الإسلامية مع محيطها الخارجي أدّى إلى بروز تفاعلات أكبر وأوضح مع مكوناتها الداخلية، لا سيما على مستوى الهوية والبناء المعرفي، فظهرت مصطلحات ومفاهيم كشفت عن هذا الحراك مثل: الهوية، والتبعية الثقافية، والاستلاب الثقافي، والغزو الثقافي، والاختراق المعرفي، والانتماء والارتماء، والأمن الاجتماعي، والنهوض الحضاري، والأصالة والمعاصرة إلخ. ولعل العالم العربي من أكثر المنظومات الجغرافية والديموغرافية والثقافية في العالم، التي تعرضت إلى محاولات تشكّل جديد، منبتة عن منظومته المعرفية وهويته الحضارية. مما أدى إلى نشوء خطابات ثقافية ومعرفية، لا سيما على مستوى الخاصة والنخبة، تحاول أن تتلمس طريقها نحو الانعتاق عن الآخر، وخوض معركة البناء تنموياً ونهضوياً، وتطوير منهجية مناسبة للتعامل مع الذات والواقع والآخر؛ لإتاحة الفرصة أمام الهوية كي تثبت قدرتها في تشكيل الفعل المجتمعي، والإسهام في تشكيل الوعي اليقظ بمكونات هذه الهوية من جهة، وبكل ما يعمل على محاولة نسقها من جهة أخرى

لقد توصلت الدراسة إلى أن التفكير المقاصدي تفكير نقدي بامتياز، ونحن بحاجة إلى استثماره في مختلف مجالاتنا المعرفية، خاصة في ما يستجد من أمور، وأنشأ هذا التفكير العملي ما يُسمى بالخطاب الفني المتجاوز، الذي يتطلب إدراكاً صحيحاً وواعياً لمعطيات التطور التاريخي، ونظرة موضوعية تجاه الذات، واستثماراً للطاقة النفسية والفكرية؛ لتشريح الواقع ورصد مكوناته، ولعل في ذلك نقلاً نوعياً للخطاب من الأهواء والأوهام الذاتية إلى الآليات والشرائط الموضوعية. لا سيما أننا نمرُّ اليوم بمرحلة نستطيع القول فيها إننا قادرون على تحديد تصوّر واضح عن طبيعة العلاقة بين التبعية والتخلف والسكون من جهة، والكينونة والخصوصية من جهة أخرى.

وهذا الوعي يدفعنا إلى الانتفاع من العلوم المختلفة، في محاولة لرأب الصدع الذي أنتجته المنظومة المعرفية الغربية، التي ركزت لمدة طويلة على التخصصية والأُحادية، دون تثوير للعلوم والمعارف الأخرى لتفسير الظاهرة. وبناء عليه نحن بحاجة إلى التذكير الدائم بضرورة تفعيل البحث البيني، فهو معلم أصيل في فعلنا الحضاري.